صفى الدين الحلى

٦٧٧ — ٧٥٠ هـ

(شاعر أتى بما أخجل زهر النجوم فى السماء ، كما قد أزرى بزهر الربيع فى الارض)

هكذا يصف (ابن شاكر) صاحب فوات الوفيات بليل الحلة وحماة والقاهرة : صفى الدين . وكأنه إذ يفاخر به الطبيعة فى جمال أرضها وسمائها على ماحوى ذلك الجمال من نور وشذا وألوان وسحر ، يريد أن يسجل لنا باعترافه دليلا ذامغا على أولئك الذين يزعمون أن الأدب العربى قد أخذته الصيحة يوم حطم التتار عرش المستعصم فى بغداد !

نعم هناك أناس يعتقدون أن الأدب العربى بعد سقوط بغداد قد أجدبت أرضه وهوت نجومه ، فأصبح لا ينتج إلا دنىء النبات ، ولا يستضىء إلا بخافت الذبالة ، وأنه قد ضل عن منابع الوحى فانزوى تحت قبة ذلك العصر المظلم المغمور الذى يسمونه عصر المغول والأتراك أو عصر الدول المتتابعة ؛ ولكن هذا الزعم مبنى على نظرية مخطئة ذاعت فى مبدأ دراسة الأدب ، ثم أخذت معاول الآراء الحديثة تهدمها من كل جانب ، وهى التى كانوا يعبرون عنها بقولهم الأدب ظل السياسة ، فحيثما ولت السياسة وجهها تبعها خيالها ، وكلما ألم بها سقم تقاسمته مع خدينها ، ولهذا جعلوا عصور الأدب من حيث القوة والضعف مطابقة التقسيم لعصور السياسة ، كأن الأدب شخص قابع تحت عرش للملك يحين أجله إذا انقض عليه العرش فهشم أضلاعه !

لم يمت الأدب بعد أن ماتت بغداد ، وانما ألجأته السياسة فقط إلى الفرار من مجال الفوضى والوهن ، فهام على وجهه قليلا ، ثم ألقى العصا فى معاقل حصينة يستطيع فيها أن ينصب رايته وينشر بساطه بعد ذلك اللغب والاعياء . كانت هذه المعاقل منيعة فى الأقطار العربية ولكنها ترجع جميعا إلى ثلاثة مراكز قوية : مصر كما تمثلها القاهرة ، والشام كما تمثلها حماة ، وجزيرة العراق كما تمثلها ماردين . وبين هذه المراكز ظل الأدب العربى يتنقل طليقا حيا معلنا عن نفسه بأفذاذ نوابغ لا يقل بعضهم عن أعلام العصر العباسى فى ريعان شبابه ، ومن هؤلاء ابن نباتة المصرى وصلاح الدين الصفدى ، وابن حجة الحموى ، وعلاء الدين بن الأثير ، وصفى الدين الحلى الذى نتكلم اليوم عنه من حيث هو شاعر .

* * *

نشأ صفى الدين بالحلة من مدن العراق مهد الوحى الشعرى الغامر شاعرا بفطرته : يحب الشعر ويطرب لما فيه من موسيقى وانسجام ، فأكب على حفظ كثير من مقطوعاته وهو لم يزل يعد غلاما غض الاهاب ، وأخذ ينظم من أمثالها ما توحيه خواطره وميوله فى غير تصنع أو كلفة كما يقول هو عن نفسه « كنت قبل أن أشب عن الطوق ، وأعلم ما دواعى الشوق ، يهجا بالشعر نظما وحفظا ، متقنا علومه معنى ولفظا ، وامقا بسبك القريض ، كارها للكسب بالتقريض » فكانت هذه الفطرة أول عامل فى إيجاد تلك القوة الشعرية النابغة ، وأكبر مؤثر فى توجيه نفسه بعد إلى التغنى بالعواطف الصادقة الطبيعية المتصلة بأعماق النفس ورغبات الحياة . ثم اجتمع له عامل آخر شحذ هذه الفطرة وعاونها على السير فى اتجاهها وهو ولادته من أسرة راقية ذات قدم فى المجد تفخت فيه من روح العظمة فجعلته يهتف بمآثرها ويشرد بمفاخرها ، وربته كما ينشأ ولد النبلاء أحدا بقسط وافر من الثقافة العربية السائدة فى ذلك الوقت ، أو بالأحرى من الثقافة العباسية ، لأن تراث الفكر العباسى كان لا يزال هو المثل الرفيع الذى يحتذيه كل من أراد أن يرتوى من مناهل العلم والأدب بالرغم مما أصابه من القضاء السياسى . وإلى هذين العاملين كان هناك سبب ثالث ساعد كثيرا فى بناء ذلك الصرح الشعرى الباذخ وهو ما ألجأته الحياة إليه من التنقل بين عواصم البلاد العربية : فقد فارق الحلة وهى مسقط رأسه حول عام سبعمائة من الهجرة إلى « ماردين » أكبر قلاع الجزيرة حيث نزل على صاحبها الملك المنصور نجم الدين غازى ثم ابنه الملك الصالح ، وهما من أمراء البيت الأرتقى الخاضع لسيادة مصر فى عهد السلاطين ، ورحل بعد ذلك حول عام ٧٢٧ إلى مصر نفسها فنزل بالملك الناصر قلاوون ، ثم عاد إلى حماة بالشام فاتصل بالسلطان المؤيد عماد الدين الايوبى وهو المؤرخ الشهير بأبى الفداء وابنه الافضل ، وقد كانا واليين من قبل سلطان مصر أيضا ، وذهب إلى الحجاز مرارا لاداء فريضة الحج والزيارة ، فكان لهذه الرحلات آثار قوية فى إحياء شعره واستغلال قريحته وفى تنمية ثقافته ومقدرته الادبية . واذا كان الرجل قد اجتمع له نقاء الفطرة ورقى الاسرة وملاءمة البيئة فماذا تنتظر منه إلا أن يكون شاعرا فحلا يرفع منار الأدب ويحتل له من الخلود مكانا ؟ !

هكذا كانت دواعي الشعر مهيأة لصفي الدين ، فأخذ يصعد إلى قمته حتى أشرف على الغاية وصار أمير الشعر بلا منازع في أقطار الشرق ما عدا مصر التي كانت معتزة إذ ذاك بأميرها الذي لا يبارى وهو : «ابن نباتة» ، ولما كان العصر الذي نشأ فيه الحلي هو الوارث لآثار الفكر العباسي بالعراق ، وثمرات العصر الأيوبي بمصر ، فقد ظهرت طوابع هذين العهدين في شعره ، واصبح مرآة حاكية لصورتيهما ، ونستطيع على ضوء هذا الحكم أن نعرف الخصائص التي تميز بها شعره من ناحية الاسلوب وناحية المعاني .

أما أسلوبه فقد كان على نمط كبار الشعراء العباسيين في العصر الثاني متين الديباجة شديد الأسر مصوغا من الألفاظ القوية الرنانة المألوفة التداول ، إذ كان يوجه كثيرا من عنايته إلى الناحية اللفظية ، ويأبى إلا أن يعارض المتنبي والطغرائي والحمداني وأضرابهم من الفحول ، فلا يقصر خطوه عن مداهم ولا يقع دون علاهم . وقد احتذى مع ذلك طريقة القاضي الفاضل التي نشرها بمصر وسرت منها إلى الأدب العربي جميعه ، فملأ شعره بالطباق والجناس والتورية والاقتباس وغيرها من أنواع الصناعة البديعية حتى كاد أسلوبه يعد مثلا كاملا لهذه الطريقة ، وأوشك كل محسن بديعي على كثرة فروع هذه الأنواع أن يأخذ حظه من شعره .

ومن الحق أن نقرر أن هذه الظاهرة كانت تعد في ذلك العصر من الأمثلة العليا للشعر ، بحيث تقاس منزلة الشاعر بقدرته على تطبيقها واستخدامها في كلامه وخلق المناسبات لها كلما استطاع ، كما يتضح لنا ذلك من كتب النقد التي ألفت حينذاك ، كخزانة الأدب لابن حجة الحموي ، والوافي للصفدي وغيرهما ، ولهذا لا يجوز لنا أن ننظر إلى تلك الصناعة نظرة فتور أو سخط ، بل على العكس ينبغي أن نحكم على كل شاعر بروح عصره ونقيسه بمقياس زمانه لئلا نصدم القديم بالجديد ، ونخلط الماضي بالحاضر . وعلى هذه القاعدة يمكننا أن نحكم لصفي الدين بأنه شاعر قدير مقتدر استطاع أن يتلاعب بالالفاظ في مجال البديع بمهارة يفوق بها كثيرا من نابهي الشعراء الذين عاصروه أو سبقوه ، بل إن الباحث العصري قد لا يملك نفسه أحيانا من الإعجاب بهذه الصناعة التي يعنى عليها لما يبدو له من لطف التقابل والتطابق واللمح والايماء في معان منسجمة وخيال منتظم . وإذا شئت فانظر إلى قوله :

وما ذاك إلا أن يوم وداعنا ... وقد غفلت عين الرقيب على رغم
ضممت ضنى جسمي الى ضعف خصرها ... لجنسية كانت له علة الضم

ربيبة خدر يجرح اللحظ خدها ... فوجنتها تدمى وألحاظها تدمى
اذا ابتسمت والفاحم الجعد مسبل ... تضل وتهدى من ظلام ومن ظلم
تغزلت فيها بالغزال فأعرضت ... وقالت لعمري هذه غاية الذم
وكم قد بذلت النفس أطلب وصلها ... وحاولت فيها بالنفيس على علم

فلم تلد الدنيا لنا غير ليلة ... نعمت بها ثم استمرت على العقم !

وقد بلغ من قدرته وتجليته في هذه الحلبة أنه ألف قصيدة طويلة عدتها مائة وخمسون بيتا تشتمل على مثل هذا العدد من أنواع البديع المختلفة كأنها كتاب على وضع لضبط هذا الفن بالقاعدة والمثال ، ومع ذلك فهي قطعة أدبية قيمة تجمع بين الغزل الرقيق والمدح الرائع والاستعطاف والوصف في سياق مخاطبة الرسول (ص) الذي يتوسل اليه الشاعر بعد مرض عضال شفاه الله منه ! ومن أبياتها هذه الامثلة الأربعة التي جمع فيها أنواع التوشيح والمقابلة واللف والنشر والتذييل والالتفات :

هم أرضعوني ثدي الوصل حافلة ... فكيف يحسن منها حال منفطم ؟
كان الرضا بدنوي من خواطرهم ... فصار سخطي لبعدي عن جوارهم
وجدي حنيني أنيني فكرتي ولهي ... منهم إليهم عليهم فيهم بهم
قد لذة عيش بالحبيب مضت ... فلم تدم لي وغير الله لم يدم !

ومع أن صفي الدين عارض كثيراً من الشعراء في العصرين الجاهلي والأموي ، وشاهد كثيرا من مظاهر حياتهم في البادية أثناء رحلاته الطويلة ، فاننا لم نره يتناول الاوصاف الجاهلية الغريبة أو يختار غير الشائع في عصره من الألفاظ السهلة الجارية على الالسن الفصيحة ، متأثرا في ذلك شعراء العصر الايوبي في مصر وان كان لم ينزل معهم الى الذوق الشعبي العام ، فكأنه وقف وسطا بين الاسلوب القديم الغامض ، والاسلوب الحديث الواضح ، ومن أجل موقفه هذا رماه أحد النقاد في عصره بسهم حاد إذ عاب عليه ضعف شعره من الوجهة اللغوية وقلة استخدامه للألفاظ الغريبة ، فأخذ يرد عليه بهذا البيان القوي الحاسم :

إنما الحيزبون والدردبيس ... والطخا والنقاخ والعلطبيس
والحراجيج والشقحطب والصعـ ... ـعب والعنقفير والعنتريس
لغة تنفر المسامع منها ... حين تروى وتشمئز النفوس
وقبيح أن يذكر النافر الوحـ ... ـشي منها ويترك المأنوس
أين قولي : هذا كثيب قديم ... ومقالي : عقيقل قد موس ؟
لم نجد شاديا يغني : « قفا نبـ ... ـك » على العود إذ تدار الكؤوس
لا ولا من شدا « أقيموا بني أمـ ... ـي » إذا ما أديرت الخندريس
خلي للأصمعي حرب الفيافي ... في نشاف تخف منه الرموس
إنما هذه القلوب حديد ... ولذيذ الألفاظ مغناطيس

فهذه دعاية ثائرة للتجديد تدل على أن شاعرنا لم يكن يحب التقليد الأعمى للأقدمين ، وانما يرى من الواجب أن تتحول اللغة إلى أشكال شتى بحسب ما يقتضيه العصر مادامت محافظة على قواعدها الأساسية ، وقد ذكرنا أن هذه الدعوة ليست إلا صدى لمذهب الشعر المصري سرى في بلاد الشرق العربي حين كان منضويا تحت لواء مصر السياسي والاجتماعي في عهد الأيوبيين والسلاطين .

(يتبع)

ضياء الدين الريس